الخاتمة

الخاتمة والنتائج

الحمد لله على تيسيره لإتمام هذه الدراسة، والتي آمل أنها أعطت تصوراً شافياً عن طبيعة الحضارة الغربية، كما بدت في عيون وأذهان من رآها وصوّرها، ممن ارتحل إليها، وتعايش فيها، وتزوج بعضهم من أهلها،

وأدرك محاسن ومساوئ الحضارة الغربية، وقدمها في آثاره المطروحة للدراسات البحثية.

- توزعت الدراسة على ثلاثة أبواب رئيسة:-

تناول الباب الأول فيها الدراسة الموضوعية للمجتمعات الغربية في نواحيها السياسية والثقافية والاجتماعية والوجدانية والحضارية، وقد مثّلت مسألة اختيار أمثلة مناسبة لهذا الموضوع إشكالية محيرة؛ بسبب كثرة الأمثلة لتلك النواحي المهمة في المجتمعات الغربية. وكان لزاماً

علي الانتباه؛ لئلا يجرفني الاستغراق الموسع لبعض الأمثلة، إنْ في التحولات التاريخية، أو الظواهر والآفات الاجتماعية.

وبقدر ما اتسم طابع المجتمعات الغربية بالنظام وتقدير الوقت وقيمة العمل، اتضحت في المقابل آفات اجتماعية مختلفة لتلك الحياة المادية؛ لابتعادها عن التعاليم السماوية. وكما الفطر السام برزت المشاكل الأخلاقية والنفسية الملازمة لحداثة لا تتكئ على سفينة الإيمان الحقيقي بالله واليوم الآخر، فشاعت آفات الإدمان والانتحار مع ما يصاحبها من أمراض مستفحلة، وهذه الضريبة وجه من وجوه الحداثة المادية البحتة.

وناقش الباب الثاني الجماليات المتنوعة في الطبيعة والمكان، واللوازم الفنية في سير المرتحلين، بدراسة مستوياتهم اللغوية والأسلوبية والتركيبية.

ونظراً لامتداد المجال الزمني للبحث عبر قرنين من الزمان، فقد تباينت الأساليب وتنوعت، وهي في هذا الجانب بالذات تحتاج إلى دراسات أكثر تخصصاً وتعمقاً، تعمل على ترتيب وتصنيف المستويات الأسلوبية لتلك الأعمال المدروسة. فحتى الأعمال ذات الطابع السهل المباشر، تفاوتت في سهولتها من سيرة لأخرى، ربما بسبب تمرس كاتبيها في مجال الكتابة المقالية والصحافة عامة، بما فيها من تراكيب لغوية وأجنبية وعامية شائعة.

وجاء الباب الثالث ليدرس التداخل الحتمي بين الفنون الأدبية في مجال السيرة، فرأينا أحمد أمين مثلاً، يكتب سيرته في فصول مقالية بجانب مذكرات مؤرخة ومتناثرة في منتصف السيرة وفي أواخرها.

وقد سبقت الإشارة بأن أدب السيرة أدب تفسيري موضوعي بالدرجة الأولى، وهو ما أتاح له ارتداء ما شاء من القوالب الفنية.

- **وقد أفضت الدراسة إلى بعض النتائج المستحقة بدورها لدراسات أخرى، منها:-**

_ استرعى انتباهي في ظاهرة الحنين إلى الوطن ملحوظة أنه كلما كان المرتحل فرداً وحيداً بلا أصدقاء أو أهل وأولاد، زاد ميله واستغراقه في ثقافة المجتمع الغربي. وأذكر على سبيل المثال طه حسين في أيامه، حيث المحاباة والممالأة للمجتمع الفرنسي، ليس في سيرته وحسب، بل وفي توجهه العقلاني بصفة عامة.

يتضح هذا أيضاً عند عبد الرحمن بدوي، غير أن بدوي مثّل منذ بداياته العقل الجاد والتفكير الحر الرصين، بتعمقه وتأمله لما حوله لأبعد مما يراه غيره، فهو ليس شخصاً مفتوناً بمظاهر المجتمع

وقشوره، كحال طه حسين في أيامه التي وإن عُدّت أشهر سيرة عربية، فلأسلوبها البياني الفذّ، وهو منحة الله القدير، وليس في مسار تفكير صاحبها ورؤيته مايميزه عن غيره بفارق ملحوظ.

أما بالنسبة للكتاب الذين ارتحلوا مع أسرهم أو حرصوا على الوجود ضمن المحيط العربي، فقد اتسمت سيرهم بطابع المحافظة والتشبث بالأصول والجذور، مثلما رأينا عند محمود الربيعي ومحمد عناني ورضوى عاشور من الذين لم يستلبهم الغرب بغثه وسمينه.

وقد أشار يورغن نيلسن في كتابه عن المسلمين في أوروبا ملحوظة مقاربة لما أسلفت، فأشار بأن الالتزام بالهوية الإسلامية يخفّ ويتضاءل عند عامة المهاجرين الأفراد، ولكنه يتضح بعد انضمام عائلة المهاجر إليه (من زوجة وأطفال)، عندئذٍ تتضح الهوية الإسلامية لهذه الأسرة أكثر فأكثر، لذا فليس من المصادفة "أن تؤدي عملية لمّ الشمل العائلي إلى إحداث أوّل زيادة كبرى في عدد المساجد". (١)

وفي هذه الملحوظة البحثية تأكيد على دور العائلة في تثبيت وتدعيم جذور المغترب (بصورة دائمة كالهجرة، أو المقيم بصفة مؤقتة في بعثة دراسية ونحو ذلك).

(١) المسلمون في أوروبا ، ١٧٨.

_ لاشك بأننا متى ما رأينا إيجابيات ومزايا الحياة الغربية، أدركنا ما ينقصنا في بلادنا العربية، لتكاملية المشهد أمامنا بين مايجري لدينا وما يجري هناك.

وقد تحدث بعض كاتبي السيرة عن أهم عوائق الإنجاز في مصر (ومثلها في بقية الدول العربية).

وتحدث صراحة عن آفة البيروقراطية، وشبهها البعض بدودة الهيدرا ذات الرؤوس الكثيرة [١]، مثل الكاتب حسين فوزي، فلماذا يحتاج إصدار القرار الجيد والمفيد للمجتمع إجراءات إدارية طويلة معقدة، تفتّ عضد الحماس وتطرحه أرضاً؟ هذا عند إصدار القرار، أما عن تطبيقه على أرض الواقع، فهذا يستلزم إجراءات أخرى مليئة بالمعاملات والمراجعات واللجان، وسلسلة ممتدة من التعقيدات الإدارية.

ومن ناحية أخرى تحدث البعض عن ضرورة تفريغ وتهيئة أعلام المجتمع من العلماء للأجواء العلمية المناسبة، سواء كانوا أساتذة في الجامعات أو في مؤسسات الدولة المختلفة. فلا يُشغل أمثال هؤلاء

---

(١) تحدث حسين فوزي عن آفة البيروقراطية في مصر وشبهها بدودة الهيدرا ذات الرؤوس الكثيرة، وذكر مناقشته لبعض المسؤولين من كبار الدولة نقاشاً ملتهباً بشأن هذه الآفة المعطلة لعجلة التنمية.
انظر : سندباد في رحلة الحياة ، ١٦٥.

العلماء بأمور إدارية سقيمة [1]، بل تُهيأ لهم الأجواء المناسبة للاستفادة من فكرهم الإصلاحي والتنموي السليم.

_ ومن الملحوظات اللافتة للانتباه: تساؤلات بعض المرتحلين عن عدم تفعيل الدور الإعلامي لخدمة قضايا الأمة، وعدم تفعيل الجانب الأدبي والثقافي كذلك. وكان محمد عناني أثناء وجوده ببريطانيا قد عاصر عام النكسة ١٩٦٧م، وتحدث عن مشاهدته لآداب اليهود المنشورة، وامتلاء المكتبات البريطانية بتلك الكتب، مما جعله يتساءل عن عدم وجود ما يقابل تلك الآداب المزيفة بمؤلفات وأعمال أدبية تروي حقيقة الإنسان العربي والمسلم وحقيقة القضية الفلسطينية.

أعمال مكتوبة بأقلام عربية[2] لا بأقلام يهودية حاقدة، تصور العرب بصورة همجية بدائية.

وعندما زارت رضوى عاشور مع زوجها متحف الفن الحديث بمدينة بوسطن، وشاهدت لوحة الجرنيكا لبيكاسو عن المذبحة التي حدثت عام ١٩٣٧م، بإقليم الباسك على يد القوات الإسبانية– وقد بلغت شهرة هذه

---

(١) مثل حسين فوزي وأحمد أمين وعبد الوهاب المسيري.
وعندما استلم أحمد أمين عمادة كلية الآداب تحدث عن ضيقه وتبرمه من كثرة المعاملات الإدارية التافهة. وقد ظل في العمادة لمدة سنتين أسف فيها على ضياع الوقت والجهد على غير فائدة. بسبب كثرة الطلبات الإدارية والشكاوى ، وانشغال كل وقته "فكل الأعمال تعرض علي حتى شراء مكنسة" انظر : حياتي ٢٤٩.
(٢) انظر : واحات العمر ٢ / ٢١٣ ، ٢١٤.

اللوحة إلى حد جعلها أشهر لوحة سياسية في القرن العشرين–، فتساءل مريد البرغوثي زوج رضوى عن المذابح الفلسطينية ومتى سترسم ؟[١]

وبالفعل، فالمذابح الفلسطينية على يد اليهود على كثرتها وتواليها منذ قيام الدولة العبرية عام ١٩٤٨م وحتى الآن، لم تُستثمر من الناحية التشكيلية استثماراً كافياً.

عشرات المذابح ذاق فيها أبناء الشعب الفلسطيني صنوف العذاب والتنكيل والتشويه في مشاهد مأساوية منسية.

وفي موضوع مشابه، تحدث المسلم الأمريكي الأسود مالكولم إكس منذ أكثر من أربعين عاماً، عن عدم تفعيل المسلمين للإعلام، وذلك بعد اعتناقه للإسلام وأدائه فريضة الحج، وقد انتبه مالكوم إكس لهذا الأمر وتحدث عن غياب الإعلام عند المسلمين وعن قدرة هذا الأمر لشرح وبيان محاسن هذا الدين العظيم[٢] وطيبة المسلمين، مع أن الإعلام يمكن أن يشكل مصدراً للقوة "مقارنة بالموارد الطبيعية والتكنولوجية والاقتصادية الضخمة"[٣].

---

(١) راجع الباب الثاني ، الفصل الأول ، مبحث : جماليات المكان العمرانية.
(٢) انظر : قبسات من حياة مالكولم إكس ، ١٠٨.
(٣) تدفق المعلومات بين الدول المتقدمة والنامية ، د. ر. مانكيكان ، ترجمة : فائق فهيم ، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ١٩٨٢م ، ٩٣.

_ وتحمل فكرة الارتحال للغرب وهجاً مشرقاً في الغالب، وليس العكس، برغم جميع مخاوف الانزلاق والذوبان في متاهات المجتمعات الغربية، **ولكن لماذا؟**

يهمني الإشارة إلى أن واقع المجتمعات العربية يرزح تحت ركام ثقيل من معوقات التنمية البشرية والحضارية، من أبرز تلك المعوقات تردي الواقع السياسي في المجتمعات العربية، وانعكاس هذا على ما حوله من اقتصاد وصحة وتعليم، إضافة إلى هذا ضياع الحقوق الشائع في المجتمعات العربية، بسبب عدم وجود جمعيات حقوقية فاعلة ونقابات متخصصة، لاتكتفي بمجرد رفع الشعارات البراقة وترديدها. فالمجتمعات الغربية تزخر بجمعيات قوية في مجال حقوق الإنسان ونقابات عمالية هائلة، جمعيات ونقابات تمتلك ثقلاً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً خطيراً في تحريك وتغيير مسار الأحداث لصالحها، متى ما هُضمت حقوقها من جانب أصحاب رؤوس الأموال، أو من جانب الجهات الرسمية في الدولة. وبهذه الطريقة تنبثق الأنظمة وفق روحٍ متطلعة للعدالة الاجتماعية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

_ ينبغي التنبيه إلى أن بعض الأدباء عاش مرحلة زمنية تعاورتها متغيرات اجتماعية هائلة. وفي رسالة كتبها زكي مبارك لصديق له يشكو إليه الوحدة والوحشة في باريس، لاسيما حين يخلو إلى كتبه

ومذكراته، ويرى نفسه في بعض مؤلفاته الشيخ زكي مبارك بعمامته البيضاء، وفي مؤلفات أخرى زكي أفندي بطربوشه الأحمر، ثم يرى نفسه في فرنسا مسيو زكي مبارك بقبعته الرمادية.[١]

ففي تلك الليلة راجع زكي مبارك تحولات مظهره الخارجي، وكيف انتقل من شيخٍ معمم إلى أفندي مطربش فمسيو فرنسي..

إنها تحولات لم تمر عليه وحده، بل مرت على أقرانه ونظرائه من أبناء مصر ومثقفيها. وتحدث عنها بعضهم في سيرهم الذاتية، مثل أحمد أمين وطه حسين ولويس عوض وغيرهم.[٢]

وإن كان بعضهم لم تعصف به الصدمة الحضارية عصفاً قاسياً، فإن آخرين عانوا كثيراً للوصول إلى بر الأمان، ولمسنا ألم مصطفى محمود عن تلك المعاناة في رحلته الشهيرة من الشك إلى الإيمان.

وهل كان مصطفى محمود إلا ضحية من ضحايا الصدمة الحضارية ؟

كذلك تحدث المنظّر الاقتصادي جلال أحمد أمين في سيرته عن التساؤلات الفكرية التي داهمته أوائل السبعينيات الميلادية، قبيل بلوغه

---

(١) انظر : ذكريات باريس ، ٢٦٨.
(٢) ذكر لويس عوض في أوراق العمر بأنه كان أول طالب في كلية الآداب اجترأ على خلع الطربوش، مما أثار حفيظة بعض مدرسيه.
انظر : أوراق العمر ٦١٤.

الأربعين، وهو ليس ضحية شكلية للصدمة الحضارية كما كان والده في تردده بين اللباس الأزهري واللباس الإفرنجي الحديث.

_ تعرضت الدراسة لقضايا مختلفة كثيرة مرتبطة بطبيعة الحضارة الغربية والنظام الرأسمالي. وقد تناول بعض كاتبي السير تلك القضايا تعليقاً أو تحليلاً، مثل عبد الوهاب المسيري ورضوى عاشور ومحمد عناني وغيرهم. ومما لفت انتباهي في سير هؤلاء استشعارهم بانتمائهم الحضاري (الإسلامي / العربي) وفي هذا تأكيد على أهمية دور الخلفية الدينية والحضارية المقابلة للحضارة الأخرى.

توصيات الدراسة: -

- إجراء المزيد من الدراسات البحثية لصورة الغرب في السيرة الذاتية في أدب المجتمعات العربية الأخرى، مثل دول الخليج على سبيل المثال.

- دراسة الموقف الإسلامي لطبيعة الحضارة الغربية، وتحديد هذا الموقف في ظل العولمة.

- تحديد الإيجابيات الثقافية للنظام العولمي الحالي، وما يتطلبه من تفعيل لهذه الإيجابيات، وتذليل العوائق دون ذلك.

– العمل على إيجاد أرضية مشتركة لما تُفضي آلية نتائج الأبحاث الأكاديمية والأعمال الفنية الجادة (كالأفلام الوثائقية و التسجيلية ونحوها) بهدف تبين رؤية شمولية معاصرة للتفاعل الإيجابي مع خيرات الحضارة الغربية و ثمارها النافعة.

وبعد:

فإني ما اخترت البحث في هذا الموضوع إلا لتغلغل نمط الحياة الغربية في سائر شؤوننا العامة والخاصة، وقد يكون من الضروري من الآن فصاعداً تشجيع خصوصية الهوية والانتماء الحضاري لأمة الإسلام التي تنشد الحكمة أياً كانت من عرب أو عجم. وفي نفس الوقت لا تسير سير الدهماء بلا تمحص ولا تدقيق فيما يطرأ أو يجدُّ عليها في الفكر والرؤية.

فنحن لدينا الثوابت الكفيلة بحفظ أصالتنا، وهي أساس وجودنا الحضاري في هذا العالم. ونحن حملة الرسالة السماوية الأخيرة، و بعبارة أدق حملة الحقيقة الإلهية الشافية للحياة الإنسانية، وفق المنهج الرباني الشامل لسعادة الدارين، لا المناهج الوضعية الأخرى المتطرفة في إفراطها وتفريطها في الجوانب الأساسية لسعادة الإنسان.

أما عن فن السيرة، فكما أسلفت في المقدمة بأني تخيرته خاصة لصدق السيرة الذاتية مقارنة بالفنون الأخرى، فهي شهادة حية من صاحبها على رحلة حياته، بما فيها من خبرات النجاح والفشل على حد سواء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع